في دار الأرقم

للأستاذ فاجي الطنطاوي

اختفت شمس مكة وراء الأفق الساجي ساجبة ما تبقّى من أشعتها الذهبية على قمم الجبال الشامخة، وعلى صدور الهضاب المتموجة، بعد أن لبثت نهاراً كاملاً تبعث الدفء والنور والحياة، وغام الأفق في مكة وبدأ ينتشر فيها الظلام، وما هي إلا لحظات حتى لفّها الليل بردائه الحالك وظهرت الكواكب في سمائها تلتمع خافقة واجفة، تزيّن تلك السماء الرحيبة الواسعة كما تزين الأوسمة الفضيّة الثمينة صدر القائد الكبير؛ وأوى الناس إلى دورهم يستنشقون فيها نسيم الراحة بعد تعب النهار الطويل، ويفيئون فيها إلى الدعة والسكينة بعد صخب النهار الشديد، وبدأت أضواء المصابيح الخافتة في الليل الأسود كأنها رقع في ثوب أو دنانير في جيب

وعمّ جبل أبي قبيس سكون رهيب، وصمت بالغ، وامتدّ (الصفا) في ذروة هذا الجبل رحيباً واسعاً باسماً جميلاً، يتمشى مع (المروة) جنباً إلى جنب، يحضنان بضع دور قامت على جانبيه هي دور نفر من أهل مكة رغبوا عن سكنى مدينتهم التي تعجّ بالآهلين، فأحبّوا الانطلاق إلى الفضاء الواسع، إلى الطبيعة الفاتنة، إلى النسيم الصافي العليل، فلم يُلفوا خيراً من جنبات الصفا يُلقون فيها عصيّهم، ويبنون بها دورهم، ويحيون فيها حياة هادئة سعيدة

وكان الناظر إلى هذه الدور القليلة المنثورة هنا وهناك على أرض الصفا، يستقرّ بصره على دار قد نأت قليلاً وانفردت، دار متواضعة صغيرة شيدت بالطين والقصب، وأحاطت بها الرمال الدكناء والصخور الجرداء، لا يشك أنها دار الأرقم بن أبي الأرقم ذلك الرجل العربيّ الذي كان يعيش من نتاج ناقته من اللبن، ومحصول أرضه من الشعير، لا يعرفه إلا نفر قليل من صحابه، ولا يدري بوجوده إلا أفراد معدودون من أهله

كان الأرقم مغمور الذكر، مجهول الاسم، يحيا كأكثر رجال قومه حياة ساذجة بسيطة فارغة متشابهة، هي بحياة الحيوان أشبه، يقضي نهاره في جمع الماء والحطب وسوق الزرع واستدرار النوق والأغنام، ويقضي ليله بين أهله يحدثهم ويحدثونه ثم يستلقي ناعماً حتى الصباح

وقد كان من الممكن أن تظل حياته سائرة على هذا النمط ثم يموت فلا يدري به أحد؛ كما مات كثير من قومه فات معهم ذكرهم، وقد كان من الممكن أن تبقى داره متواضعة حقيرة لا يعرفها أحد ولا يهتمّ لها إنسان، لولا أن الله سبحانه أراد لحكمة بالغة أن يجعل اسم الأرقم في فم الزمان، يتألق في التاريخ الإسلامي كما تتألق الدرة الثمينة في القصر الفخم العظيم، وأن يجعل تلك البنية الخاشعة الصغيرة المشيدة بالطين والماء، منبع حضارة هدّت العالم، ومُنبثق دين ساد الكون ...

كانت الدار حقيرة كأمثالها من دور العرب في زمن الجاهلية الجهلاء، يقطنها عربي جاهلي ساذج مع أمه العجوز وزوجه الشابة وصغارها، يحيون حياة بدوية بسيطة، لا تمتّ بنسب إلى الحياة الفخمة المعقدة ذات التكاليف والواجبات الثقيلة، أكان يدور بخلده أن حياته ستُقلب رأساً على عقب؟ أكان يحلم أن داره ستصبح في يوم قريب أعظم مجلس نيابي قام على الأرض؟ أكان يظن أن شمساً ستشرق من داره فيعمّ نورها أرجاء الأرض ويحيا بها العالم؟ ...

خرج صباح يوم من داره يجول جولة بين قومه على عادته، يتسقط الأخبار، ويصغي إلى الهمسات والأحاديث ... فسمع نفراً منهم يتحدثون عن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب، حديثاً أثار

اهتمامه ، فأصغى إليه بكل جوارحه ، ولاح له من كلامهم أن دعوة جديدة سيئة منكرة يقوم بها هذا الرجل ، وبدت له شناعة هذه الدعوة وقبحها من كثرة الشتائم التي سمعها تنهال على صاحبها ، فأكبر الأمر ، وهاله أن يكون في قومه من يبتدع منكراً من القول يلفت به الناس عن دين آبائهم وعاداتهم وأخلاقهم ، وصمم ليفتشنّ عن محمد ، وليجتمعنّ به ، وليسمعنّ كلامه الجديد ... ومشى ذاهلاً يتملكه العجب من هذا الذي سمعه ، وهو يعرف « الأمينَ » أحسن قومه خلقاً وأطهرهم نفساً وأبعدهم عن المفاسد والمعاصي ، وأكثرهم أدباً وعقلاً ورزانة وحلماً وعفافاً ، وأصدقهم ، وأرقهم قلباً وأكثرهم عطفاً على المساكين والأطفال واليتامى والبائسين ... إنه لا يعرف رجلاً أطهر ولا أشرف ولا أكرم ولا أصدق من محمد ... إن قومه لم يعرفوا له كذبة واحدة ، ولم يستطيعوا أن ينسبوا إليه عملاً سيئاً قبيحاً واحداً ، فما الخبر ؟ وما هذه الدعوة الجديدة ؟ !

وسار الأرقم ، وظل سائراً ، وهو يسأل الناس الذين يلقاهم عن محمد ، حتى دل عليه ، ووصل إليه ؛ فرآه في جماعة من قومه يدعوهم ويحدثهم ، فجلس لا يشعر به أحد ، وأصغى ، فسمع محمداً يقول : « قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون »

وسكت محمد رسول الله ، وانفض القوم ساخرين ، واقترب الأرقم منه وقال : إن كان الإسلام ما تقول ، فأنا على دينك ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ...

* * *

قام النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتلو عليهم بعض آيات القرآن الذي كان ينزل عليه ، فلا يجد منهم إلا الإعراض والهزء والسخرية ، بل كانوا يتجاوزون ذلك إلى إنزال الأذى به وبأصحابه القلائل الذين فضلوا الإسلام على الشرك ، وأمعنوا في الأذية ، وتدرع المسلمون الصبر ، ورأى الأرقم ذلك فداخل قلبه الهم الكبير والحزن المضني ، وعزم على تخفيف آلامهم وشقائهم مهما كلفه ذلك ، ووطّن نفسه على تضحية روحه وأهله وما يملك في سبيل هذه الدعوة الجديدة التي تغلغلت في كل جارحة من جوارحه

جلس في إحدى زوايا داره الصغيرة يفكر ويمعن في التفكير : لقد كنت ضالاً فأنعم الله عليّ بالإسلام ، وكنت لا أهتم بسوى نفسي وأسرتي فأصبحت يملأ رأسي التفكير في هؤلاء الإخوان الذين تربطني بهم أقوى رابطة في العالم ألا وهي رابطة الإسلام ؛ وكان أكبر واجب ملقى على عاتقي هو تأمين معاش هذه الأسرة الصغيرة فأصبح من أوجب الواجبات عليّ اليوم أن أنهض لأدعو إلى الإسلام ، لألاقي من الأذى ما لاقاه إخواني ، أو أن أحميهم بما أحمي به أهلي وولدي ، وكيف لي بحمايتهم ؟ أم كيف لي بدفع الأذى عنهم ؟ لا بد من العمل ، لا بد من العمل

وراح يستعرض المسلمين في مخيلته ليقف على عددهم ، فوجدهم ستة ورأى نفسه السابع[1] ، وفاجأته فكرة ملهمة برد لها قلبه واطمأنت إليها جوارحه : إن في داري متسعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولإخواني المسلمين ، وإن فيها أمناً لهم وخلاصاً من شقائهم ، أفلا أستطيع أن أضمهم فيها على غير علم من المشركين ؟

وأسرع إلى رسول الله ، فأعلن أمامه الرأي الجديد ، وبسط بين يديه الأسباب التي دعته إليها وقال له :

— إننا ضعاف يا رسول الله ، لا قبل لنا بهذه الوحوش الكاسرة ، وإن الأذى الذي يصيب المسلمين قد اشتدت وطأته أفلا نأوي إلى داري لنجمع شتات أمرنا ونغيب عن أعين أعدائنا وننتظر فرج الله ؟

فأكبر فيه الرسول الرحيم صلى الله عليه وسلم هذه التضحية ، وأذن له بإيواء المسلمين .

* * *

نشر الفجر البسّام أجنحته اللؤلؤية الخفاقة على أرجاء الكون الغارق في السكون ، المجلّل بالسواد ، الرازح تحت أعباء الوحشة ، النائم تحت كلّة الليل ، فاخترقت سُدف الظلام ومزقتها ، وأضاءت

(١) المستدرك للحاكم

أرجاء الفضاء الرحيب وأثارتها ، واحتدمت المعركة بين الجيشين : جيش الليل الذى أنهكه طول السهر وكثرة السمر، وجيش النهار الذى يملأ بردتيه عزم الشباب وتدفقه الأمانى للعذاب ، وانجلى النضال عن تبدد العتمة وإشراق النور ، وأطلت ذكاء من وراء الأفق البعيد الصافى ، باسمة طروباً خلاّبة ، وافترت لوهاد مكة وجبالها ودورها عن ابتسامة مغرية جذابة ، فابتسمت لها مكة مجيبة شاكرة ، ورقصت على جنبات الأفق الوهّاج أطياف من السحر والشعر استيقظ الناس على منظرها الخلاّب ، وبدأت الحياة تدب فى أرجاء مكة التى نفضت عنها رداء النوم لتستبدل به درع الجد والنشاط ، وهبّ المشركون غاضبين صاخبين مصممين على إفناء هذه الطغمة التى تضم أفراداً قلائل منهم ، فتنوا عن عقيدتهم بعقيدة جديدة تقضى على كل ما خلف لهم الآباء والأجداد من آلهة . وليس بعجب أن يقوموا منذ الصباح الباكر يعدّون العدة لعملهم السافل الدنىء ؛ فلقد كانوا يحلمون فى الليلة الماضية — وفى كل ليلة — بهؤلاء الأفراد الذين تحمّلوا كل أنواع الأذى فى سبيل عقيدتهم ، ولم يكن يبدو على أحد منهم أنه سينفد صبره وتضعف مقاومته ، كانوا يعجبون لقوة رسوخ هذا الدين الجديد فى النفوس وتمكنه فيها واستهانته بكل أنواع الأذى والعذاب فى سبيل بقائه سالماً ، وكانوا يخشون إن هم خلوهم وغضوا عنهم الأبصار ولم يأبهوا لهم ، أن يجذبوا إليهم عدداً كبيراً من العرب فيصبحوا قوة لا طاقة للمشركين بها ،

وراح المشركون يفتشون عن الأفراد الصابئين فى الأسواق وفى الساحات العامة ، وفى ظل الحرم ، وفى دور مكة المجتمعة ، ولكنهم باءوا بعد سعيهم بالفشل، ولم يجدوا لهم أثراً، كأن الأرض ابتلعتهم وغيّبتهم ، فعادوا خاسرين أذلاء كما يعود الجيش مهزوماً مدحوراً . أجل، لقد اختفى المسلمون فى تلك الدار النائية القائمة على الصفا ، جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخفّ عنهم الأذى ويزول عنهم الألم ، تحلقوا حوله فى خشوع وصمت يستمعون إلى آيات القرآن الكريم التى يوحى الله إليه بها ،ويصغون إلى مواعظه فتمتلئ أفئدتهم برداً وسلاماً وإيماناً ويقيناً ، وتفيض نفوسهم شجاعة وعزماً، فيشعر كل واحد منهم أن فى استطاعته أن يقاتل ألفاً من المشركين وأن يدحرهم ويردّهم على أعقابهم خاسرين

جلس إلى جانب النبى صلى الله عليه وسلم فتى فى ربيع حياته ، كانت له دالّة كبيرة عليه حتى إنه كان يدعو نفسه زيد بن محمد ؛ لقّب نفسه بذلك حين أخرجه رسول الله إلى الحجر وقال : اشهدوا أن زيد بن حارثة ابنى يرثنى وأرثه وكان أول من أسلم من الموالى ، وجلس إلى جانبه رجل ربعة حسن الوجه رقيق البشرة ، عظيم اللحية ، بعيد ما بين المنكبين ، وضىء ، أبيض مشرب بصفرة ، جعد الشعر ، ذو جمّة عند أسفل أذنيه ، جذل الساقين ، طويل الذراعين ؛ ذلك هو عثمان بن عفان ذو النورين الذى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكل نبىّ رفيق ، ورفيقى فى الجنة عثمان . وجلس إلى جانبه طفل صغير لا يتجاوز العاشرة من عمره هو الزبير بن العوّام حوارى رسول الله وابن عمته صفية بنت عبد المطلب علّقه عمه فى حصير ودخّن عليه ليعود إلى الكفر فقال : لا أكفر أبداً ، وظل متمسكاً بدينه يحرص عليه حرصه على روحه . وجلس إلى جانبه رجل طويل القامة أبيض مشرب بحمرة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة ، أهدب الأشفار ، أقنى الأنف ، طويل النابين الأعليين ، ضخم المنكبين ، غليظ الأصابع هو عبد الرحمن بن عوف . وإلى جانبه شاب فى العشرين من عمره نشيط قوىّ حديد النظرات مفتول الساعدين هو سعد بن أبى وقاص. وجلس فى الناحية المقابلة رجل مربوع إلى القصر ، أبيض يضرب إلى الحمرة ، ضخم القدمين ، رحب الصدر آدم كثير الشعر ليس بالجعد ولا بالسبط هو طلحة ابن عبيد الله الذى أسلم على يدى أبى بكر . وإلى جانبه رجل نحيف ، معروق الوجه ، خفيف اللحية ، يبدو عليه الخشوع والتذلل هو عامر بن عبدالله بن الجراح أمين هذه الأمة . وإلى جانبه أخ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع هو عبد الله بن عبد الأسد الذى يكنى أبا سلمة . ولقد أسلم عثمان والزبير وعبدالرحمن وسعد وطلحة على يد أبى بكر الذى كان يجلس إلى يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتفعاً بعباءته متوجهاً بقلبه وجسمه إلى إخوانه المسلمين يؤنسهم ويكبر فيهم الثبات على الحق

وكانت الغرفة الأخرى فى الدار ممتلئة بأفراد آخرين من المسلمين كعثمان بن مظعون وأخويه قدامة وعبد الله وكعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة ابنة الخطاب . كانوا يتحدثون تارة ويذكرون الله أخرى ، ويتواصون بالصبر والثبات على كل أذية حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا

فى هذه الدار المتنزلة ولد الإسلام من جديد ، وشيّد أول ركن من أركانه ، وبزغ أول شعاع من أشعته الوهاجة التى أضاءت العالم ... إلى هذه الدار المتنزلة كان يأوى كل يوم أفراد من العرب يهجرون أباطيل أجدادهم وأصنامهم ويسلمون على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينضمون إلى إخوانهم فيزيدون قوة ... ولم تمض إلا أيام قليلة حتى أصبح المسلمون فيها تسعة وثلاثين يعبدون الله مستخفين ينتظرون القوة والمدد من الله ، ولكن رجلاً لا كالرجال أسلم وانضم إليهم وكملوا به أربعين لم يرضه أن يبقوا مستخفين خائفين بل قال : يا رسول الله ، ألسنا على الحق؟ قال : بلى . قال : والله لن نبقى هنا ، ولا بد من الخروج ... ذلك هو عمر بن الخطاب

وكانت خاتمة هذه الدار التى كانت أول مرحلة من مراحل الإسلام ، خاتمة رهيبة عظيمة سارة فخمة ، إذ خرج منها المسلمون وهم يكبرون معتزين فخورين ، فكأن جدرانها وأرضها وسماؤها وكل شبر فيها قد نفخ فيهم روح العزة والفخار والجرأة ، فأصبحوا لا يبالون شيئاً فى سبيل الإسلام

لك الله أيتها الدار ! لقد لممت شمل المسلمين بعد أن كادت تفنيهم وحشية المشركين ، ولقد آويت المسلمين وأمنتهم وزدتهم قوة بزيادة عددهم . لقد كنت الحصن الذى رد عن المستضعفين قنابل الظالمين ، ولقد كنت أول مسجد جمع المؤمنين تحت راية رسول الله وفى كنفه

سنذكرك كلما ألمت بنا النكبات ، وحاقت بنا المصائب ، ودهتنا الدواهى ، وستتأسى بذكراك كلما رأينا ضعف المسلمين وخذلانهم ، وتأخرهم وذلهم ، فلن يعرف اليأس إلى نفوسنا سبيلاً ولن يزيدنا الضعف إلاّ قوة . لقد كان المسلمون فيك أفراداً معدودين لا سلاح لهم إلا إيمانهم وعقيدتهم ، تألب عليهم قومهم وناصبوهم العداء والأذى وهم ألوف مؤلفة ، ولكن النتيجة كانت للاسلام الذى قضى أيام طفولته فى دار الأرقم

عليكِ وعلى صاحبكِ وأضيافه رحمة الله ، وعلى أشرف الخلق صلاة الله وسلامه .

(دمشق) ناجى الطنطاوى

(مجانا للعموم) اعـــلان للجمهور (مجانا للعموم)

ترسل إلى المصابين بالاضطرابات العصبية — تعليمات مجانية عن اكتشاف حديث تملك كيف تجرى عملية التحليل النفسى لنفسك وأنت فى منزلك لتتخلص من الاضطرابات والخوف والحزن والوسواس ومن الوهم والشعور بالنقص والقلق الفكرى وضيق الخلق ومن النورستانيا والهستيريا

وبها تعليمات فى تقوية الارادة والذاكرة والحصول على شخصية بارزة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف مهنة التنويم المغناطيسى والتأثير به عن قرب وعن بعد — والحصول على دبلوم فى هذا الفن

اكتب إلى الأستاذ :

الفريد توما

سيد معهد الشرق رقم ٧١٩ شارع الخليج بفجالة . بمصر

وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجانا